Archive of SID

أ.د. جمعة شيخة
مدير مجلة دراسات أندلسية

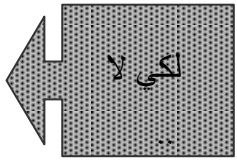

التهجير الأندلسي: مأساة أم عبرة؟

كتب الاستاذ جمعة شيخة مدير مجلة دراسات اندلسية في العدد (٤٣) يقول:

لقد بدأ العدّ التنازلي للوجود العربي بالأندلس منذ بداية القرن ١١/٥ إثر سقوط الخلافة الأموية بقرطبة وانقسام الأندلس الى عدّة دويلات ضعيفة ومتناحرة. ولئن كانت محاولات المرابطين في نهاية القرن ١١/٥ ثم الموحّدين في نهاية القرن ١٢/٦ ناجعة في إطالة عمر الدولة العربيّة بالأندلس، فإنّ المحاولات بعد ذلك وخاصة في بداية القرن ١٣/٧ باءت بالفشل. ولم يعد للأندلسيّين تحت ضغط حركة الاسترجاع «La Reconquista» المسيحية من سبيل للنّجاة بأنفسهم والخلاص بدينهم إلا الهجرة. وتمت على مراحل ثلاث:

١- الهجرة الأندلسية خلال القرن ١٣/٧: لقد كان للهزيمة التي مُني بها الموحدون مع الأندلسيّين في معركة العقاب في بداية القرن ١٣/٧ الآثار السيئة على مصير الدولة الموحديّة أولاً ثم مصير بلاد الأندلس ثانيا. فقد انهار الجدار الذي كان يحمي ما بقي من دولة الأندلس في شبه الجزيرة الإيبيرية، وأصبحت جلّ المدن الكبرى معرّضة للسقوط.

www.SID.ir

Archive of SID
وفعلا سقطت خلال النّصف الأوّل من القرن ٧/ ١٣ قيجاطة ولوشة وقرطبة وبلنسية وشقر وجيّان وإشبيلية. واصبحت الهجرة من الوطن الى خارجه أحد الحلول التي اضطرّ إليها الأندلسيون مقتنعين أو مجبرين. وكان أغلب المهاجرين في هذه الفترة من العلماء الكبار والقضاة المحنكين والشعراء الفحول والإداريّين المهرة.

أ- وباعتبار أن الهجرة الأندلسيّة لها أسبابها ومراحلها ونتائجها. ولها سلبياتها ولها إيجابياتها:

ب - باعتبار أنها معاناة نفسيّة لحظة مغادرة الوطن نهائيا، ومعاناة مادّية في الطريق البرّي أو البحري، وفي بلد الاستقبال سواء أكان إفريقيا أم أوروبيا أم آسيويا.

ج - باعتبارها - رغم سلبيّاتها - تواصلا حضاريّا بين إسبانيا والبلدان المستقبلة، وتلاقحاً فكريّا بين شعوب البحر الأبيض المتوسّط شمالا وجنوبا، شرقا وغربا.

د - باعتبارها كانت سببا في ازدهار فلاحي وتطوّر صناعيّ ونموّ عمراني وخاصة في العدوة الإفريقية.

هـ - باعتبارها كانت نبعا ثرا بمأساتها، ومصدر إلهام بمعاناتها في الأدب الإسباني والعربي والعبري. وفي أدب هؤلاء المهجّرين أنفسهم وبلغتهم الأعجمية العجيبة (حروف عربية ولغة إسبانية). لقد تفاعل معها، قديما وحديثا، الشعراء والأدباء والرّوائيون والفنّانون والسينمائيون والمسرحيون، ومازلنا الى اليوم نقرأ ونرى ونسمع روائع

www.SID.ir

Archive of SID

من الأدب الخالد والفنّ الرائع، شرارة الخلق والإبداع فيهما الهجرة الأندلسية.

إنّ كلّ عنصر من هذه العناصر جدير بأن يهتمّ به الباحثون والدّارسون والمبدعون لتخرج من بين أشواك المأساة زهرة التّسامح يفوح عبيرها فنستنشقه نحن من خلال حوار نزيه بين الحضارات وتقارب متين بين الشعوب وتفاهم عميق بين الأديان.

٢- الهجرة الأندلسية الثانية وتمّت إثر سقوط غرناطة ٨٨٧/ ١٤٩٢ آخر معقل سياسي وعسكري للعرب بشبه الجزيرة الايبيرية.

وحاول الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإليزابت عند إبرام وثيقة الاستسلام أن يوفّرا للأندلسيّين من مسلمين ويهود كلّ الضمانات للبقاء في أرض أجدادهم. لكنّ هذه الوثيقة وما فيها من عهود لم تكن إلا وسيلة للتّعجيل باستسلام المدينة. فقد نقضت شروطها الخلابة لأعوام قلائل من سقوط غرناطة. وهكذا أصبحت الهجرة من الوطن الشاغل للمسلمين واليهود بعد أن أفتى بوجوبها بعض الفقهاء من العدوة الإفريقية.

٣- الهجرة الأندلسية الثالثة وتمّت سنة ١٠١٧/١٦٠٩: إنّه مهما كان عدد المهاجرين قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها كبيراً فإنّ من بقي من الأندلسيّين بأرض الآباء والأجداد كان عددا لا يستهان به. وقد عمل التعصّب الديني مجسما فيما عرف في التاريخ الإسباني بمحاكم التفتيش على تصفية هذه الأمّة الأندلسية من مسلمين ويهود تصفية حضارية ودينية وأخيرا جسميّة. ولمّا عجزت هذه الطرق عن سحق كيان

www.SID.ir

Archive of SID

هذه الأمة جاء قرار الطرد النّهائي في بداية القرن ١٧/١١ من طرف فيليب الثّاني. ولقد استمرّت السفن شهوراً بل أعواما تحمل أكداسا من كتل بشرية بائسة ومعذبة فتلقي بها عن طريق البحر في العدوة الافريقية وعن طريق البر في جنوب القارّة الأوروبية وصولا الى بلاد الاناضول وتركيا.

وبعد حوالي سبعة قرون ونيف من الهجرة الأولى وخمسة قرون وعقدين من الهجرة الثانية وأربعة قرون من الهجرة الثالثة، يجب علينا ونحن في النصف الأوّل من القرن ٢١/١٥ أن ندرس هذا الحدث التاريخي بموضوعيّة تبعدنا عن إثارة التعصب الديني للمهزومين أو الحقد النفسي للمظلومين أو الاعتزاز العسكري للمنتصرين.

www.SID.ir